

الشوري في الإسلام



يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز واصفاً المؤمنين من أهل الجنة في سورة الشوري: (وَالَّذِينَ يَجْنَدِلُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقَنَا هُمْ يُنْذِفُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَيْعُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَاتِهِمْ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَاهُمْ وَأَصْطَاحَهُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِذْهَبْ لَا يُحِبُّ الطَّالِمِينَ * وَلَمَنْ ازْتَصَرَ بَعْدَ طَلْمَمَهُ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَافَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمَنْ عَزَمَ الْأَمْوَارِ) (الشوري/ 43-37).

وصف الله تعالى أهل الجنة بأئمهم مؤمنون بربهم، والإيمان يقتضي التوكّل عليه دون سواه؛ فلا أحد في هذا الوجود يفعل شيئاً إلا بما شئتَ جلَّ وبمشيئة الله جلَّ وعلا وإذنه. لذلك يقصر المؤمن توكّله عليه ولا يتوجه في فعل ولا ترك لمن عداه. هذا الشعور ضروري لكل مسلم كي لا يحنى رأسه إلا لله، ولا يرجو ولا يرهب أحداً إلا الله. فهو مطمئن ثابت الفؤاد في الضراء، شاكراً المنعم في السراء، يطبع الله فيما أمر، وينتهي بما نهى عنه وزجر.

1- (وَالَّذِينَ يَجْنَدِلُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ): أي الذين يتحبّبون الوقوع في كبار الذنب التي أوعده الله عليها وعيدها كالشرك والقتل العمد وعقوق الوالدين والفواحش وهي كل ما استقبّه الشرع والعقل والطبع السليم من قول أو فعل كالغيبة والكذب والزنّى والسرقة والإفساد في الأرض. والله سبحانه وتعالى يعلم ضعف هذا المخلوق البشري فيجعل الحدّ الذي يرتضيه لعبد المؤمن أن يتجمّد الوقوع في كبار الإثم والفواحش.

2- (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ): الإسلام لا يكلّف الإنسان فوق طاقته، والله سبحانه وتعالى يعلم أن الغضب انفعال بشري يُنبع من فطرته وهو ليس شرعاً كلاماً؛ فالغضب الله ولدينه وللحق والعدل غضب مطلوب وفيه الخير، ومن ثم فليس كلّ الغضب خطيئة. ولكن الإسلام يقود المسلم ويعلّمه على أن يتغلّب على غضبه خاصة إذا كان في حدود الدائرة الشخصية. فإذا عفا المؤمن عن من أساء إليه يُحسب له صفة مُثلثة من صفات الإيمان المحبّية، وهذا ما عبرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بغضّه لنفسه فقط إنما كان يغضّ الله، فإذا غضب الله لم يغضّه شيء. صلى الله عليه وسلم يا رسول الله فالعفو والصفح

من محسن الأخلاق والمؤمن حين يفعل ذلك يطلب ثوابه وعفوه.

3- (وَاللّٰهُدِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلٰةَ): أي استجابوا لربهم فيما دعاهم إليه، وأزالوا العوائق التي تقوم بينهم وبين ربهم، وأطاعوا الرسول فيما أمر الله واجر، وأحسنوا الصلة بربهم بأدائهم الصلاة المفروضة بإتمام أركانها وشروطها وخشوعها في مواقتها المفروضة، لأنّ الصلاة أعظم العبادات الله عزّ وجلّ فهي معراج الوصول إلى الله وهي صلة بين العبد وربه.

4- (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْذِفُونَ): المؤمنون يتشارون فيما بينهم في الأمور الخاصة وال العامة كالبحث في كافة الشؤون العامة التي تخمن المسلمين في تدبير أمورهم ورعايا مصالحهم. وقد كان النبي ﷺ أكثر الناس مشاوره لأصحابه.

فالشوري طابع ذاتي للحياة الإسلامية وهي من ألزم صفات القيادة. وقد أمر الله تعالى بالشوري في آية أخرى فقال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةِ مِنَ اللّٰهِ لَذِكْرَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَّلَعْتَ غَلَبِيظَ الْقَلْبِ لَا نُفَضِّلُوا مِنْ حَوْلِكَ فَإِاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاءُوا رَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَّ مَتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران/ 159).

قال الحسن البصري (رحمه الله): "ما تشاورَ قومٌ قطٌّ بينهم إِلا هداهُمْ إِلَّا لأفضل ما يحضرهم" وفي لفظ: "إِلا عزمَ الله بالرشد أو بالذى ينفع" (شرح فتح الباري، 3/340).

يقول الشاعر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن *** برأي لبيبي أو مشورة حازم

ولا تجعل الشوري عليك غضاضة *** فريش الخوافي قوة للقوادم

والشوري في الإسلام ليست قالباً جاماً بل هي أمرٌ متراكٌ للصورة الملائمة لكلٍّ بيئه وزمان لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة المسلمة.

فمتى وجِدَ المسلمين، ووجِدَ الإيمان في قلوبهم، تحققت الشوري في أبهى صورها إذا طبّقوا ما أمر الله سبحانه وتعالى.

5- (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْذِفُونَ): الإنفاق سمة من سمات الجماعة المؤمنة. والإإنفاق من الأغنياء قوة للأمة وعلاج لضعفها؛ وذلك بالإحسان إلى الأقرب فالأقرب ثم للمصالح العامة كإغاثة المحاويخ ودعم المجاهدين في سبيل الله.

6- (وَاللّٰهُدِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْذِتَصِرُونَ): أي إذا تعرّض المسلمون للظلم والاعتداء انتصروا منهـنـ ظلمـهمـ لأنـ التـذـلـ لـمـ لـمـ يـغـيـرـ مـعـنـهـ المؤمنـيـهـ؛ إذ العجز والاستضعاف يؤدي إلى إغراء العدو على الحقـ صـنـوفـ آخرـ منـ العـدوـانـ. فالمؤمنـونـ أعزـةـ كـرامـ يـحـافظـونـ علىـ الحقوقـ والـحرـماتـ فـهـمـ يـقـفـونـ فيـ وجهـ عـدوـهـمـ.

ولا تعارض بين هذه الآية وما سبقها (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ)، هذه الآية تتعلق في حال وجود خلاف داخل الأمة المسلمة. أما الآية (واللّٰهُدِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْذِتَصِرُونَ) تتعلق بتجربـ الطـالـمـ وـتمـاديـهـ فيـ غـيـرـهـ واستـضـعـافـهـ الأـمـةـ وـخـاصـةـ فيـ حالـ وجودـ عـدوـ خـارـجيـ.

قال ابن عباس (رض): "إنّ المشركين بغو على رسول الله وعلى أصحابه، وآذوهـمـ، وأخرجـوهـمـ منـ مـكـةـ. فأذـنـ اللهـمـ بـالـخـرـوجـ وـمـكـنـ لـهـمـ فـيـ الـأـرـضـ وـنـصـرـهـمـ عـلـىـ منـ بـغـيـ عـلـيـهـمـ" وذلك في قوله سبحانه وتعالى: (أُذِنَ لِلّٰهُدِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَزْهَمْ طُلَمْهُوا وَإِنَّ اللّٰهَ عَلَى زَصِيرَهِمْ لَقَدَرْ * اللّٰهُدِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللّٰهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللّٰهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بَعْضَهُمْ لَهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبَيْعَ

وَمَدْلِيلٍ وَآتٍ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَغَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحج/39-40). والآلية لا تتعلق فقط بالماضي وإنما هي عامة و شاملة لكل زمان ومكان، تفرض مواجهة كل بغي أو ظلم يتعرّض له المسلمين في كل زمان ومكان؛ فإذا نالهم ظلم من طالم لم يستسلموا لظلمه. فالMuslimون يعتزون بقوتهم والثقة بنصره.

7- (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا): أي أن عقاب السيئة عقاب مماثل للحرم وهذا نظير الآية الكريمة: (فَمَنْ أَعْتَدَ لَهُ عَلَيْهِ فَاعْتَدْ وَاعْلَمْ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَ إِنْ كُمْ) (البقرة/194). قوله تعالى: (وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَمَّا قَبْلَهُ وَمَا عُوقِبْتُمْ بِمَا لَهُ وَلَئِنْ صَدَرْتُمْ لَهُ وَخَيْرُ الْلَّهِ بِرَبِّينَ) (النحل/126)، قوله تعالى: (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا) (الأنعام/160).

لكن الله سبحانه وتعالى رغب بالعفو في آخر الآية فقال: (فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ) (المائدة/45). وقوله تعالى: (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَإِنَّ جَرْهُ عَلَى اللَّهِ) (الشورى/40)؛ أي من عفا عن الطالم المُسيء وأصلح باللود والعفو ما بينه وبين من أساء إليه، خاصة إن كان من إخوانه المسلمين فثوابه على الله، يعطيه أعظم الجزاء. وقد وصف الله المُتَّقِين بقوله تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَمَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران/134).

إن الله سبحانه وتعالى لا يحب الطالمين المبتدئين بالظلم والإساءة، ولا يحب من يتعدى في الاقتراض ويتجاوز الحد فيه، لأن المجازة في الاقتراض ظلم. والله سبحانه تعالى يؤكد مشروعية دفع الظلم والبغى بقوله: (وَلَمَنْ ازْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبَبِيلٍ) (الشورى/41)؛ أي إن المُنتصر من الطالم لا يؤاخذ على دفع الظلم عن نفسه وهو دفاع نادر به حميم النطم والقوانين والأديان: (إِنَّمَا السَّبَبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) (الشورى/42). أي إنما المؤاخذة والعقوبة على الذين يبدأون الناس بالظلم، ويتجاوزون الحد في الانتقام، ويبحرون على النفوس والأموال بغير الحق، ويتكبرون ويتجبرون بظلم الناس وسلبهم حقوقهم؛ أولئك الطالمون البادئون بالظلم، المُجاوزون الحدود لهم عذاب مؤلم شديد كما جاء في قول الله سبحانه وتعالى: (وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (العنكبوت/23).